S. Fritz Forkel

Das Verschwinden der klassischen Sprachen in Europa und das Weiterleben des klassischen Arabisch

sowie

Einige Worte zur sprachlichen Situation im Königreich Marokko

Text eines Vortrages in arabischer Sprache, den der Verfasser 1995 auf einem von der Adenauerstiftung in Marrakesch/Marokko veranstalteten Symposium hielt.

Zusammenfassung

In Europa verloren die klassischen Sprachen Latein, Kirchenslawisch und Altgriechisch im Laufe der vergangenen 500 Jahren ihre Stellung als Bildungs- und Hochsprachen und wurden durch die jeweiligen Nationalsprachen ersetzt. Damit wurde auch die Diglossie bzw. Zweisprachigkeit abgeschafft. Das klassische Arabisch hat in den Ländern arabischer Zunge dagegen seine Stellung als Hochsprache bewahrt und baut sie heute noch weiter aus. Die Gründe dafür liegen vor allem darin, daß Latein und Kirchenslawisch (Griechisch allerdings weniger) nicht als nationale Sprachen empfunden wurden und daher beim Aufkommen und der Erstarkung des nationalen Gedankens durch nationale Sprachen ersetzt wurden. Das klassische Arabisch, al-ʿarabiya al-fuṣḥā, in den arabischsprachigen Ländern war dagegen nie nur die Sprache der Religion und der Bildung, sondern wurde auch als nationale Sprache empfunden. Als der nationale Gedanken auch in der Islamischen Welt Einzug hielt, führte dies nicht zur Abschaffung des klassischen Arabisch, sondern im Gegenteil zu seiner Erstarkung. Dadurch blieb auch die Diglossie – das Nebeneinander einer Hochsprache und einer Umgangssprache, die [im allgemeinen] mit ihr verwandt ist, sich in wesentlichen Punkten aber auch von ihr unterscheidet – bestehen.

Die sprachliche Situation in Marokko ist nicht nur durch Diglossie, sondern auch durch Mehrsprachigkeit gekennzeichnet – klassisches Arabisch (Hocharabisch), Dialekt-arabisch, Berberisch, Französisch und Spanisch. Marokkaner arabischer Bildung beherrschen das Hocharabische im mündlichen Gebrauch oft besser als Ostaraber. Da sich die marokkanischen Dialekte besonders im Vokalismus viel stärker vom Hocharabischen unterscheiden als ostarabische Dialekte, müssen die Marokkaner mehr Mühe bei der Erlernung des Hocharabischen aufwenden, sprechen es dann aber mit weniger Dialektinterferenz als Ostaraber.

Dr. S. Fritz Forkel
Kastanienstrasse 24
61352 Bad Homburg

Deutschland ألمانيا

اضمحلال اللغات الكلاسيكية الأوربية وبقاء العربية الفصحى
ثم
بعض الكلمات عن الوضع اللغوي في المملكة المغربية

من المعروف أن الوضع اللغوي في أوربا طيلة القرون الوسطى كان يتصف في كل قُطر من الأقطار الأوربية بتواجد لغة كلاسيكية أي فصحى مكتوبةٍ ولغةٍ أو لهجاتٍ دارجةٍ غيرِ مكتوبة غالباً. ويسمى وضع لغوي كهذا بالازدواجية أو الثنائية اللغوية (Diglossia). وكانت هذه اللغة الكلاسيكية في غرب أوربا ووسطها اللغةَ اللاتينيةَ وفي البلدان الصقلبية (أو السلافية) الأرثوذكسية اللغةَ الصقلبيةَ الكنسيةَ وفي اليونان وآسيا الصغرى التي كانت قُطراً يونانياً في تلك العصور اللغةَ اليونانيةَ القديمة.

والآن سأستعرض هذه الثنائية اللغوية في أوربا طوال القرون الوسطى بشيء من التفصيل ثم أقارن بينها وبين الوضع في الأقطار العربية عامّةً وفي المملكة المغربية خاصّةً.

يمكن تلخيص هذه الثنائية اللغوية في القرون الوسطى ودور اللغات الكلاسيكية بالذات بالنقاط الخمس التالية:

1) كانت اللغات الكلاسيكية لغات الدين، أي لغات الكنائس المسيحية المختلفة إذ أنها لغات الكتاب المقدّس المترجَم عن اللغتين الأصليتين العِبرية واليونانية فلهذه اللغات الكنسية إذاً قداسة في قلوب المؤمنين المسيحيين.
2) كانت اللغات الكلاسيكية لغات دُوَلية، اللاتينية في غرب أوربا ووسطها والصقلبية الكنسية عند الصقالبة الأرثوذكس. أما اليونانية فكانت قد فقدت وظيفتها كلغة دُوَلية بعد الفتح العربي للشام ومصر.
3) كانت الطبقة التي تعرف وتستعمل اللغات الكلاسيكية ضئيلةً جداً معظمها من رجال الكنيسة.
4) كانت اللغات الكلاسيكية لغاتٍ **مكتوبةً** أولاً وقبل كل شيء – وإن كانوا يتكلمون بها في مناسبات معيَّنة، فهي تُستعمل في الطقوس الدينية وفي المحاضرات الجامعية وفي المجامع الكنسية وعند لقاء المثقّفين من أقطار مختلفة.
5) كان هذا الوضع اللغوي وضعاً ثابتاً لا يتغيّر لمدة قرون طِوال – حتى جاءت اليقظة القومية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، عصر النهضة الأوربية، وغيّرت الوضع اللغوي تغييراً جذرياً.

إن هناك تشابهاً كبيراً بين أوربا والأقطار العربية في القرون الوسطى من الناحية اللغوية، ولكن هناك اختلافاتٍ مهمةً أيضاً لا يجوز أن نتغافل عنها إن أردنا أن نفهم أسباب التطوُّرات اللغوية المتعاكسة في أوربا والبلاد العربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي. وهاهي نقاط الاختلاف الثلاث:

1) كانت نسبة الذين يعرفون اللغة الفصحى – وإن كانت هذه المعرفة قليلةً غالباً – أعلى بكثير في الأقطار العربية منها في أوربا إذ يجب على **كل** مسلم أن يحفظ الصلوات وأجزاءً من القرآن الكريم **باللسان العربي الفصيح**، بينما العامّة في البلاد المسيحية أيامَ القرون الوسطى لم يكونوا يقرأون الكتاب المقدّس وما كان عليهم أن يقرأوه أو يحفظوا أجزاءً منه، وما كان موجوداً في الديار المسيحية ما يُشْبِه الكُتّاب أو المْسيد كما يسمّى في المغرب.
2) كانت اللغات الكلاسيكية الأوربية لغاتٍ دينية وبالتالي مقدّسة كما بيّنت، ولكنّ قداستَها لم تكُن كقداسة اللغة العربية. فالقرآن الكريم للمسلم كلامُ الله المُنْزَلُ **بلسان عربي مبين لا** تجوز تلاوتُه إلا باللسان الذي أنزله الله به، بينما يجوز من الناحية العقائدية ترجمةُ الكتاب المقدّس إلى اللغات واللهجات المحلّية واستعمالُه مترجَماً في الطقوس الدينية المسيحية.
3) كانت اللغات الكلاسيكية في أوربا لغات ثقافية ودينية ولكنها لم تكن تُعتبر لغات قومية (باستثناء اليونانية الفصحى التي كانت اللغةَ القوميةَ ايضاً)، بينما العربية الفصحى كانت وما تزال في كل أقطار العروبة اللغةَ الثقافية واللغةَ الدينية و**اللغةَ القومية** في وقت واحد.

مما تقدم يتبيّن لنا بوضوح لماذا استغنى الأوربيون عن لغاتهم الكلاسيكية في العصور الحديثة ولماذا حافظ العرب على العربية الفصحى:

فعند اليقظة القومية – وبدايتها بالغرب في القرن الخامس عشر الميلادي وبالشرق في القرن التاسع عشر – أخذ الغربيون يطوّرون **لغاتِهم ولهجاتِهم القومية** مستغنين بالتدريج عن اللغات الكلاسيكية الدُوَلية أما العرب فإنهم حافظوا وما يزالون يحافظون على **لغتهم العربية الفصحى** يطوّرونها ويُحْيُون تراثها **فهي لغتهم القومية بالذات، لها جذور عميقة في نفس كل عربي.**

وفي هذا الصدد أود أن أعرض باختصار لرأي شائع عند بعض اللغويين الغربيين مبيِّناً بطلانه، ويرى أصحاب هذا الرأي أن وجود لغة فصحى بجانب اللهجات الدارجة أي الثنائيةَ اللغويةَ في مجتمعٍ ما من علامات التخلّف الحضاري، كأن كل مجتمع ذي ثنائية لغوية ما زال يعيش في القرون الوسطى!

يتضح مما قلت أن الأوربيين استغنَوا عن اللغات الكلاسيكية الفصحى وبذلك في معظم الحالات عن الثنائية اللغوية ليس لأسباب لغوية بحتة ولا لأسباب عملية **بل لأسباب قومية**. ولو كان تواجُد لغة فصحى ولهجات دارجة أي الثنائية اللغوية في مجتمعٍ ما علامةً من علامات تخلّف هذا المجتمع لكانت سويسرا من الدول المتخلّفة، إذ أنها تتّصف - أي المقاطعات الألمانية منها وهي معظمها - بالثنائية اللغوية الثابتة، شأنها في ذلك شأن البلاد العربية. ولكنّ سويسرا بالفعل من أكثر دول العالم تقدّماً، لا فرق بينها وبين ألمانيا التى معظم مناطقها اليوم أحاديةُ اللغة ! وما سبب محافظة السويسريين حتى اليوم على هذه الثنائية اللغوية؟ تبنّى السويسريون قبل قرونٍ اللغةَ الألمانيةَ الفصحى، وهي لغة ترجمة مارتين لوتر للكتاب المقدّس في القرن السادس عشر، مستغنين بذلك عن اللاتينية - ولكن ليس عن الثنائية اللغوية! فالألمانية الفصحى رمز انتماء السويسريين عِرْقياً وثقافياً إلى الأمة الألمانية الكبرى واللهجات الألمانية السويسرية رمزٌ لاستقلال سويسرا عن ألمانيا منذ القرن الثالث عشر.

منذ فجر النهضة العربية في بداية القرن التاسع عشر تطوّرت اللغة العربية الفصحى تطوُّراً لم يسبق له مثيل. فإنها استعادت المكانة التي تليق بها وهي أصلاً من أكثراللغات تطوُّراً في العالم أجمع تفي بحاجات كل زمان وكل مكان. فهي لغة الماضي المجيد والحاضر المتطوِّر والمستقبل المُشْرِق، إن شاء الله.

أودّ في هذا الصدد أن أذكر ثلاث ظواهر أراها أهمّ ظواهر تطوّر العربية في أيامنا هذه:

١) تنتشر معرفة العربية الفصحى بفضل **الإذاعة والتلفزة في كل** طبقات الشعب انتشاراً لم يسبق له مثيل في تاريخ العربية، وهي تصل حتى إلى الأمّيين ونصف الأميين - أي من تعلم في الكُتّاب (المسيد) فقط. طبعاً، إنّ لتعميم التعليم تأثيرَه الكبيرَ في نشر العربية الفصحى وهو جدُّ مهم - ولكن قد يكون تأثير الإذاعة والتلفزة أكبر، لأنّ الإنسان يتعلم اللغة من خلالهما بطريقة مُباشِرة وطبيعية!

٢) بدأت العربية الفصحى تستعيد بُعْد اللغة المنطوقة - وإن لم تكن اللغة الأصلية أي لغة الأم لأحد فإنها تُستعمل في الكلام الحر المُرتجَل أكثر فأكثر، مقتربةً من الصورة المثالية كما وصفتها النحاة العرب - وليس مبتعدةً عنها! ويرجع هذا الاقتراب الفعلي من الصورة المثالية أو النظرية الموصوفة في كتب النحو إلى تأثير **الإذاعة والتلفزة** أيضاً، إذ يمكن للناس لأول مرّة في تاريخ العربية أن يسمعوا اللغة الفصحى الخالصة أو شبهَ الخالصة طيلة اليوم.

٣) يتم تدريجياً إدخال العربية الفصحى إلى البيوت، ولا أقصد بذلك حلول اللغة الفصحى محل اللهجات الدارجة - فإنني لا أرى ذلك كما لا أراه في سويسرا والله أعلم - بل أقصد ظاهرةً جديدةً نسبياً ذاتَ أهمّيةٍ كبيرة، أعني **تعليمَ البنات**. فتعليم البنات العربيات يُدْخِل اللغة العربية الفصحى إلى البيوت العربية كما أدخل تعليمُ البنات السويسريات اللغةَ الألمانيةَ الفصحى إلى البيوت السويسرية. فالأمهات يقرأن للأولاد الصغار ويشرحْن لهم البرامج التلفزية باللغة الفصحى ويُساعِدْنَهُم في الوظائف المدرسية.

وإليكم الآن بعضَ الكلمات عن الوضع اللغوي في المغرب كما أراه:
تتميّز المملكة المغربية عن سائر أقطار العروبة بتعدُّد اللغات واللهجات المتواجدة فهناك العربية الفصحى واللهجات العربية الدارجة واللغة البربرية بلهجاتها المختلفة واللغة الفرنسية واللغة الإسبانية. ولا يمكن أن يُعتبر هذا الوضع وضعاً ثابتاً، بل هو في حالِ تغيُّر. فالإسبانية تتراجع أمام العربية الفصحى والفرنسية، والفرنسية بدورها تتراجع تراجعاً بطيئاً أمام العربية الفصحى، وأنا لا أشكّ في أن العربية الفصحى سوف تحل في يوم من الأيام محل الفرنسية في كل المجالات التي ما تزال تسود فيها. أما الثنائية اللغوية، أي تواجُد العربية الفصحى واللهجات الدارجة ـ العربيةِ منها والبربرية ـ فإنني أراها ثابتة، كما قلت من قبل، شأنُ المغرب في ذلك شأنُ سويسرا.

والآن أريد أن أذكر بعض الظواهر المتعلقة بالعربية الفصحى والعربية الدارجة في المملكة المغربية والتي لاحظتها خلال إقامتي في هذا البلد الجميل وعند الاستماع للإذاعة المغربية وأنا في ألمانيا.

العربية الفصحى أولاً:

١) تتفوّق عامّةً إجادةُ المغاربة للعربية الفصحى في الكلام الحر المرتجَل على إجادة إخوانهم المشارقة تفوّقاً واضحاً ـ والكلام هنا طبعاً عن المغاربة ذوي الثقافة العربية، هذا مفهوم، وليس عن ذوي الثقافة الفرنسية.
وهذه الإجادة الممتازة للفصحى عند المغاربة لاحظها أيضاً غيري من العرب والأجانب فإنها ترجع في نظري إلى سببَيْن رئيسيَّيْن:

ا) يقِلّ تأثير العربية الدارجة المغربية على العربية الفصحى للبُعْد الكبير بينهما من الناحية الصوتية والصرفية والنحوية والقاموسية ـ فأثر البربرية في الدارجة المغربية ملحوظ (Substratum).
ونجد هذه الظاهرة ذاتَها في شمال ألمانيا فاللهجات الشمالية أبعد عن الألمانية الفصحى من اللهجات الجنوبية والألمانية الفصحى إذاً أفصح في الشمال منها في الجنوب.

ب) ما عرف المغرب ـ وهو لم يخضع للسلاطين العثمانيين في القسطنطينية كمعظم البلدان العربية الأخرى ـ هذا التدهورَ الحضاري الذي عرفته بلدان المشرق في عصور الانحطاط فجامعة القرويين في فاس كانت دائماً وما تزال مناراً للعلم ينير شمال إفريقية وغربَها وهي تحافظ ـ مع المؤسسات الدينية والعلمية الأخرى في المغرب الأقصى ـ على سلامة اللغة العربية.

٢) بالقياس إلى العربية في بلدان المشرق فالعربية الفصحى المغربية جدُّ فصيحة أو بالتعبير الغربي جدُّ كلاسيكية، بالرغم من بعض التأثيرات الفرنسية في القاموس والأسلوب. وإليكم بعضَ أوجُه هذه الفصاحة على سبيل المثال لا الحصر:

- الإكثار من تشكيل أواخر الكلمات في الاستعمال الشفهي ـ في التدريس والمحاضرات الجامعية وغير الجامعية والخطابات والمقابلات الصحفية ولقاءات المثقّفين من بلدان عربية مختلفة.
- استعمال الأرقام الفصيحة في الغالب مثل « سنةَ ألفٍ وتسعِمائةٍ وخمسٍ وتسعين » أو حتى « سنةَ خمسٍ وتسعين وتسعِمائةٍ وألف » وما سمعت هذه الصورة الفصيحة إلا في المغرب. ويغلب في المشرق استعمال الأرقام الدارجة.
- استعمال الكلمات العربية أو المعرّبة تعريباً كاملاً في حالات كثيرة بدلاً من المرادفات الأجنبية مثل « حافلة » و « تلفزة » بدلاً من « أوتوبيس » أو « باص » و « تلفزيون » والتي تشيع في المشرق.

٣) يقترب نطق الجيل الجديد من المغاربة اقتراباً ملحوظاً من نطق المشارقة للفصحى من حيث إخراجُ الحروف وكذلك من حيث نبرُ الألفاظ وإيقاعُ الكلام، والفرق واضح بين الجيل القديم والجيل الجديد من المثقّفين المغاربة. وهذا الاقتراب من النطق المشرقي أيضاً من أثر الإذاعة والتلفزة على ما يبدو. لا أعني طبعاً أن نطق المغاربة من الجيل القديم ذوي الثقافة التقليدية غيرُ سليم. بالعكس! فإجادتهم للفصحى جدُّ ممتازة من جميع النواحي، وقد يأسف الإنسان لضياع هذه الخصائص المغربية!

وأخيراً ملاحظتان قصيرتان عن **العربية الدارجة**:

١) دارجة المثقّفين المغاربة بالفعل دارجتان: دارجة المثقفين ثقافةً عربيةً ودارجة المثقفين ثقافةً فرنسيةً، فالألفاظ المتعلقة بالحضارة العليا مأخوذة إما من العربية الفصحى أو من الفرنسية.
ولاحظت خاصةً استعمالَ الأرقام الفرنسية في أحايين كثيرة عند ذوي الثقافة الفرنسية.

٢) تؤثّر الفصحى في دارجة المثقّفين ذوي الثقافة العربية تأثيراً قوياً، كما هو الحال في المشرق أيضاً، ولكنّ تأثير الفصحى في الدارجة المغربية يكاد ينحصر في القاموس والأسلوب ولا يصل إلى تصريف الأفعال، فلم أسمع في المغرب صِيَغ المبنيّ للمجهول على غِرار « بيُقال » و « بيُعتبَر » و « بيُكْتَب » في دارجة المثقفين المصريين مثلاً. وسبب ذلك هو البُعْد الكبير بين الفصحى والدارجة المغربية من الناحية الفونولوجية والصرفية، كما قلت أعلاه.